مجلة دراسات دوليّة

اسم المقال: كوسوفا ومشكلة بناء الدولة
اسم الكاتب: أ.م.د. حميد حمد السعدون
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/6944
تاريخ الاسترداد: 2025/04/22 11:54 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة دراسات دوليّة جامعة بغداد ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

كوسوفا ومشكلة بناء الدولة

الاستاذ المساعد الدكتور
حميد حمد السعدون(*)

كوسوفا، اسم استعاد بريقه والاهتمام به عند الجميع، يوم بات منطقة نزاع وصراع وعنف منفلت، طيلة ايام العقد الاخير من القرن العشرين، مما استدعى جملة من التراكمات التي طبعت مسيرة هذا الاقليم لقرون سابقة، حينما كان، محط اهتمام جميع المتنافسين من اصحاب القوة والنفوذ. وكوسوفا وهي تودع السنين الاخيرة من القرن الماضي، بالعنف والقتال والنزعة العنصرية والشوفينية، التي طبعت سلوك جميع المتنافسين على اقليمها، فأنها كانت في الوقت نفسه، المسرح الاخير لما تبقى من اشكال وممارسات الحرب الباردة التي هيمنت على المسرح الدولي، طيلة اكثر من خمسة عقود، وهذا ما منحها اهتمام العالم وتعاطفه، خاصة وان الطرف الاخر كان منفلتاً وعنيفاً في ممارساتة وبطريقة تكاد ان تكون منهجية.

وهذا البحث، محاولة للاحاطة بكل مايتصل بأقليم كوسوفا، من خلال قراءة تاريخه والبحث في تأثير المدى والفعل الجغرافي، من خلال ما تصارع عليه ومن اجله خصوم متعددون، خلال حقبه الزمانية المتعددة، وسعي سكان هذة البلاد لترجمة واقعهم القومي والديني، وبشكل لايتقاطع مع المألوف في عالم السياسة المعاصر.

وقائع التاريخ وحقائق الجغرافيا

هناك مقولة شائعة عند جميع المهتمين في الشأن السياسي الدولي تتلخص بالقول "ان البلقان برميل بارود قابل للانفجار في أية لحظة " وهذه المقولة حظيت بأهتمام ورصد كل المهتمين بالشأن البلقاني، واخضعت للتجربة في الكثير من الحوادث والممارسات. فهذه المنطقة تتميز بكونها تعج بالكثير من القوميات والاديان والتدخلات الخارجية، كما انها منطقة تحظى بتأثير واسع ومؤثر في شكل تنافس وصراع الاقوياء، مما يمنحها قدرة على ترجيح هذا الطرف او ذاك، بطريقة واضحة. ولذلك باتت كل اقاليمها او دولها، ذات قدرة اكيدة في امكانيتها على تكدير او تأزيم

(*) رئيس قسم الدراسات الامريكية – مركز الدراسات الدولية –جامعة بغداد.

الوضع السياسي لافي منطقتها فحسب، بل على منطقة، اكثر اتساعاً، وهذا مايؤكد اهمية هذه المنطقة من الناحية الجيو – سياسية.

والاقتراب من معالجة وضع كوسوفا "ومعناها: سهل الطيور السوداء" يستوجب منا، ان نعيد استنطاق الوقائع التاريخية ، التي مرت بها المنطقة عموما. فكوسوفا كانت نقطة ارتكاز، او الحد الدموي الفاصل بين كثير من المتنافسين الذين شهدتهم المنطقة. كما ان دراسة احوال كوسوفا، تدفعنا ان ندرس وندقق في احوال يوغسلافيا السابقة.

تفيد المراجع التاريخية، بأن شعوباً ايليريه "الايليريون هم السكان الاقدمون لايليريا التي تشمل اليوم كوسوفا والجبل الاسود " كانت اول من سكن اقليم كوسوفا وسيطرت عليه سياسياً، عبر تأسيسها قبل الميلاد دولة دارينا أو دار دانيا . وبعدهم حكم الرومان الاقليم ومعظم البلقان، وجاء بعدهم البيزنطيون الذين تحت ظلهم تسلطت على الاقليم بالتعاقب جماعات محلية عدة، الى ان دخله الاسلام مع طلائع العثمانيين الذين فتحوا معظم انحاء البلقان في القرن الرابع عشر الميلادي، واستمر حكمهم حتى بدء تراجع نفوذ السلطة العثمانية بعد الحرب مع دول البلقان في اعوام ١٩١٢–١٩١٣[١].

الصرب من جانبهم ، فرضوا سلطتهم على الاقليم لمدة قصيرة أبان الحكم البيزنطي في القرن الثاني عشر في عهد ملكهم "أسطيفان" الذي تمكن عام ١٢٠٨م من طرد البيزنطيين وجعل الاقليم مركزاً حضارياً ودينياً مسيحياً للصرب، الذين بلغت قوتهم ذروتها زمن الملك " دوشان ١٣٣١– ١٣٥٥" الذي اعلن عن قيام امبراطورية الصرب، بعد ان استطاع ضم السهول الزراعية المنتجة، ونجح في التوسع في الاقليم البلقاني حتى الاراضي اليونانية والبلغارية، كما انه جعل عاصمته مدينة "بريتزين" الواقعة غرب مدينة "بريشتينا" عاصمة كوسوفا الحالية[٢].

وقد تصادف مع الصعود الصربي، بداية المد والنفوذ العثماني في المنطقة ذاتها، بعد ان بدت قوتها قادرة على سحق المنافسين لها، وهذا مابان واضحاً منذ عام ١٣٧١م، بعد ان عبر العثمانيون–مقدونيا–باتجاه قلب الدولة الصربية، لتدور معركة شهيرة في التاريخين، العثماني والصربي عام ١٣٨٩م في سهل كوسوفا، سميت بمعركة (كوسوفو بوليي)[٣]، والتي كانت "المدخل

---

[١] – محمد الارناؤطي –كوسوفا بؤرة النزاع الالباني – الصربي في القرن العشرين – مركز الحضارة للدراسات السياسية – القاهرة ١٩٩٨ – ص : ٣٠.

[٢] – حسين عبد القادر – انشطا ريوغسلافيا ، دراسة تاريخية تحليلية – مركز الدراسات الصربي – الاوربي –واشنطن ١٩٩٦ – ص : ١٦٨ .

[٣] – محمد فريد–تاريخ الدولة العلية العثمانية–ط٥–تحقيق د. احسان حقي–دار النفائس – بيروت ١٩٨٦ – ص : ١٨٠ .

الامبراطوري عثمانياً والمدخل الاسلامي دينياً. وعلى ترابها دارت المعركة الحاسمة التي سقط فيها البطل الذي تعترف به كل شعوب يوغسلافيا، وهو الامير (القديس)–لازار–. ولأن كوسوفا كانت المدخل الى ارض السلاف الجنوبيين، فأن الجيوش العثمانية التي اقتحمتها، جاءت معها من البانيا بمؤخرة انسانية البانية كبيرة، سارت وراء الجيوش لخدمتها في البداية، ثم توطنت في كوسوفا حتى بعد ان تراجعت الجيوش العثمانية وتغيرت الوان الخرائط في المنطقة"[٤].

وقد شهدت هذه المنطقة، حروب لاتعد، بعد ان مرت على ارضها، جيوش كثيرة، هادفة للفتح والسلب وتحقيق النفوذ. وكان ابرز اللاعبين الرئيسين فيها، هم الامبراطورية العثمانية والامبراطورية النمساوية ونزعات الاستقلال الصربية، وكان ثرمومتر الاحداث متصاعداً بين مد وجزر بين المتنافسين، وكان المشهد الاكثر اثارة فيه، يوم طوقت الجيوش العثمانية، العاصمة النمساوية–فيينا–عام ١٣٩٧[٥]. ولو قدر لهذه المعركة ان تنتهي لصالح العثمانيين، لتغيرت خرائط القارة الاوربية وتوجهاتها الدينية والعقائدية. الا ان قيام حلف واسع من جميع الاوربيين بالضد من طموحات العثمانيين، افشل هذه المخططات، ودفع الجيش العثماني الى التراجع[٦].

وفي اعوام الحرب العثمانية– البلقانية ١٩١٢–١٩١٣، شهدت المنطقة حصول الصرب والمقدونيين واليونانيين والبلغار على استقلالهم، في ظل سياسة الاستقواء بالآخرين، وتحديداً بريطانيا وفرنسا وروسيا، مع مايقابلها من عصر عثماني متردد، مما أبان الضعف الواضح والانحدار الهائل في قوة ونفوذ هذه الامبراطورية[٧]. وقد ساهمت الكنيسة الارثوذكسية، في اضفاء قداسة على الحرب ضد الدولة العثمانية، مما شحن العواطف والنوايا بالكثير من التعبئة، بعد ان استولت على اقاليم البوسنة وكوسوفا، حين عدت مقاتليها يؤدون واجب الرب والوطن سوية. وبعد هذا الاستيلاء، فقد بدأت صربيا، بارغام المسلمين والكاثوليك، على اعتناق الارثوذكسية، او خروجهم من الاقليم المتواجدين فيه، واحلال الصرب محلهم[٨].

لقد كانت الدولة العثمانية، متعددة الاديان والقوميات بحكم اتساع رقعتها الجغرافية على قارات آسيا وافريقيا واوربا، وهذا مبعثه اتساع شكل الفتوحات التي قامت بها الدولة في ازمان مختلفة. لقد رغبت جميع شعوب الامبراطورية العثمانية، بالتحرر من هذه الهيمنة والاستعمار

---

٤ – محمد حسنين هيكل –كلام في السياسة –ط١ – المصرية للنشر العربي والدولي – القاهرة ٢٠٠٠ –ص : ٢٧٤ .

٥ – محمد فريد – مصدر سابق – ص : ١٩٢ .

٦ – اورخان محمد علي – السلطان عبد الحميد الثاني – ط١ – مكتبة دار الانبار – العراق / الانبار ١٩٨٧ – ص : ٩٤ .

٧ – محمد الارناؤطي – مصدر سابق – ص : ١٢٦ .

٨ – عزة جلال–كوسوفو: جذور الصراع في البلقان–مجلة السياسة الدولية–القاهرة–العدد (١٣٧)–يوليو ١٩٩٩–ص : ٨١ .

المباشر، مسعتينة بحلفاء داخليين وخارجيين، من اجل تحقيق هذا الهدف. وقد واجه الاتراك هذا المسعى، بالاستعانة بفكرة "الامة العثمانية" من خلال تغليب الشعور الجمعي الواحد، على شعور التمايز الديني أو القومي[٩]، لكن الغلبة في الاخير، كانت لمسعى الشعوب وتطلعاتها، وكان احدهما، الشعوب والقوميات التي كونت في مابعد الحرب العالمية الاولى، ماعرف بأسم دولة – يوغسلافيا–وقد جاءت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤– ١٩١٨ ومالت اليه من نتائج لتكمل دفن ماتبقى من قوة الامبراطورية العثمانية، الامر الذي اضطرها للتنازل، عن جميع ممتلكاتها خارج اقليم الاناضول، للقوى المنتصرة، فظهرت دول جديدة على المسرح السياسي، كانت احدها– يوغسلافيا– التي بارك مؤتمر –فرساي–للسلام، قيامها[١٠].

والمدقق في وضع يوغسلافيا، يجدها بأنها، منطقة احتكاك وصدام بين مسيحية روما "الكاثوليكية" ومسيحية بيزنطة "الارثوذكسية"، كما انها بؤرة احتكاك وصدام بين الاسلام والمسيحية ، فضلاً عن كونها منطقة احتكاك بين الثقافات التي صنعتها الاجناس والاعراق والاديان والهويات، كما انها، كانت دوماً، بؤرة صدام دائم بين كل القوى المتنافسة والنافذة، على مستوى الاقليم او المستوى الدولي، في تأكيد حاسم على ان جغرافية الاوطان ، تكون اكثر الفواعل اهمية، حينما يشتد اوار الصراع بين المتنافسين. ولعل أجمل وصف لوضع يوغسلافيا بشكلها الذي اشرنا اليه، هو ما تناوله الأديب "ايفو اندريتش" بروايته المشهورة "جسر على نهر الدرينا" والتي حصل من خلالها على جائزة– نوبل –للآداب عام ١٩٦١ ([١١]). فتاريخ هذة المنطقه مثقل بدلالاته ورموزه الكثيرة، الامر الذي اضفى تعقيدات بالغة على الجدل القائم، ازاء الوضع النهائي لأقليم كوسوفا، الذي يقطنه اكثر من " ٢،٥ " مليون نسمة، يشكل المسلمون الالبان نسبة ٩٣ % منهم، فيما يشكل الصرب نسبة لاتزيد عن ٥ % من السكان .

وبعد الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ، فقد اضيفت تحسينات ليوغسلافيا ، خاصة في موضوع امتلاكها ميناء " تريست " المتنازع عليه مع ايطاليا . وكان السبب في ذلك ، هو الدور البطولي للشعب اليوغسلافي في محاربة النازي ، كما كان لشخصية " جوزيف بروز تيتو " ثقل واضح في نمو وقبول يوغسلافيا في المجتمع الدولي . بل ان وجوده ، قد اضفى سلاماً اهلياً على جميع القوميات والاديان والمذاهب ، التي تعج بها هذه الجمهورية ، مما ابعد عنها كل اشكال

---

٩ – بيير رينوفان وجان باتيست دوروزيل – مدخل الى تاريخ العلاقات الدولية – ط١ – ترجمة فايزكم نقش – منشورات عويدات – بيروت ١٩٦٧ – ص : ٢٧١ .

١٠ – نادية مصطفى– كوسوفا: الذاكرة والازمة الراهنة– مركز الحضارة للدراسات السياسية – القاهرة ١٩٩٩– ص: ٥٦٣ .

١١ – ايفو اندريتش – جسر على نهر الدرينا – ترجمة سلام عقل – دار الآداب – بيروت ١٩٦٣ .

العنف والتوترات . الا ان وفاته عام ١٩٨٠ ، ومن ثم صعود القوى القومية المتشددة على رأس الحزب الشيوعي اليوغسلافي في عام ١٩٨٩ ، بقيادة – سلوبودان ميلوسيفيتش – قد سرع من تفكك الاتحاد اليوغسلافي الذي بدأت خطواته الاولية عام ١٩٩٠ ، والتي جرت البلاد لحروب اهلية ، ظلت متصاعدة طيلة عشر سنوات (١٢) .

لقد فعلت الجغرافيا ، تأثيراتها على مجمل وقائع السياسة اليوغسلافية بعد عام ١٩٩٠ ، خاصة ازاء أنسلال " سلوفينيا وكرواتيا " من الاتحاد واعلان نفسيهما كبلدين مستقلين بدعم واسناد الماني . وهذا مادفع اليوغسلاف لتوكيد عنادهم في الحفاظ على ماتبقى من ارض الاتحاد. لكن تلك النية، اصطدمت بنيات متقابلة من مكونات اقاليم البوسنة– الهرسك والجبل الأسود ومقدونيا وكوسوفا، مما دفع يوغسلافيا ان تقع في خضم حرب اهلية استمرت حتى عام ١٩٩٥، حينما وضع المتخاصمون تواقيعهم على وثيقة اتفاق " دايتون " التي انهت الحرب في بعض اقليم يوغسلافيا ، دون ان تعالج المشكلة اليوغسلافية برمتها .

في تلك الحرب ، مارس الصرب سياسة الابادة الجماعية والمتواصلة ضد المسلمين في البوسنة دون ان تستطيع دول الاتحاد الاوربي ايقافهم او ردعهم ، بل انه لولا ضغوطات الرأي العام الاوربي ، بعد ان وصلته المشاهد المحزنة والمخزية لما فعله الصرب بالمسلمين ، لما تحركت الحكومات الاوربية بالتنديد بما يحصل ، دون ان تقرن ذلك التنديد بفعل حاسم . بل ان القوات الاوربية التي ارسلت لهناك لفك الاشتباك الحاصل بين المتقاتلين في اقليم البوسنة – الهرسك ، لم تستطع ان تحمي من لجأ اليها من المسلمين . بل ان الصرب اقتادوهم من معسكر القوات الاوربية وتحت نظرهم لساحات الاعدام الجماعية (١٣).

ان رهان الحرب والاستئصال والابادة الجماعية التي مارسها الصرب اولاً في البوسنة ومن ثم في كوسوفا، ضد السكان المسلمين، دفعتهم لارتكاب جرائم ومذابح بدون وازع اخلاقي او ديني او انساني، موسعين اثامهم حتى ضد السكان المدنيين، غايتهم في ذلك ، الاستئصال النهائي ضد من تمارس ازاءهم هذه السياسة، كل ذلك، دفع محكمة الجزاء الدولية في لاهاي، الى عد سياسيي يوغسلافيا وقادة جيشها ممن ساهموا في تلك الفظاعات، مجرمي حرب مطلوب تقديمهم للعدالة ، وهذا ماحصل مع ميلوسيفيتش وكراديتش ، وآخرين مازالوا هاربين عن وجه العدالة .

---

١٢ – محمد حسنين هيكل – مصدر سابق – ص : ٢٥٦ .

١٣ – جاك بيولي – البوسنة والهرسك : ابادة بدون رادع – ترجمة د. صالح المخزوم – منشورات المؤسسة العربية للنشر والابداع – الدار البيضاء (دون تاريخ) – ص ٣٨ – ٥٥ .

أزمة قوميات

لقد عانت منطقة البلقان من الارتباك الذهني ، بحكم الصراعات الدائمة بين الاقوياء عبر التاريخ الطويل لها ، مما عرض المنطقة للضعف والمتغيرات العنيفة والقاسية ، وهذا الامر طبع تاريخ هذه المنطقة بالعنف ، منذ ان باتت احد مناطق النفوذ والصراع بين المتنافسين . وكوسوفا وشعبها ، كانوا من اولئك الذين تعرضوا للاضطهاد والقسوة والتهجير والقتل ، من قبل جميع من تصدر الصفوف والنفوذ والقوة في البلقان ، وتحديداً ممن هم متنفذون في يوغسلافيا، وكان هذا الامر ، أحد السمات التي طبعت تاريخ كوسوفا منذ الحرب البلقانية بين الدولة العثمانية والصرب ومن ولاهم من الدول الاوربية بين اعوام ١٩١٢ – ١٩١٣ ، حتى نهاية القرن العشرين ، يوم ان واجه المجتمع الدولي ، يوغسلافيا ، جراء جرائم الحرب التي اقترفتها ضد الاقلية المسلمة في كوسوفا وبشكل عدواني صارخ .

ان مسلمي كوسوفا ، كانوا متأخرين عن امثالهم من سكان الاتحاد اليوغسلافي لأسباب دينية وتربوية وعلمية، فضلاً عن ذلك، فقد تداخلت الثورة الذهنية لديهم، مع انهيار النظام الشيوعي في عموم التجارب الاشتراكية التي كانت قائمة في اوربا الشرقية بين عامي ١٩٨٩– ١٩٩١. ورغم ان هذا الانهيار اوصلهم لطريق الحداثة، لكنه اوقعهم في ثوب حرب دينية وعنصرية قاسية بين مكونات الاتحاد اليوغسلافي[١٤]. ورغم معرفتنا ان شعوب الاتحاد مختلطة في تركيبها السكاني، الا انه يمكن القول، ان التحول عن الشيوعية الذي لم يكن امراً سهلاً، قد نحا بتأثير ازمة الانتقال لدى السكان المسلمين الى كابوس قاتل، بسبب العنف الذي طغى في تلك المرحلة.

ويشير البعض الى ان نسبة الزيادة الحاصلة عند السكان المسلمين في كوسوفا، دفع الصرب لسلوك العنف، امام عدم مواءمة نسبة الصرب للزيادة بالقدر نفسه، رغم كل الاغراءات واشكال الدعم التي قدمتها الدولة اليوغسلافية لهم في الانتقال والسكن في اقليم كوسوفا، وهذا مادفع الصرب لممارسة سياسة الاستئصال[١٥]. ان الوسواس الاثني الذي ظهر في اعقاب انهيار الشيوعية، قد تضخم بفضل اشكال ديموغرافية متباينة، وكان له تأثير في مسألة حدوث الانفصالات التي حدثت في الاتحاد اليوغسلافي.

---

١٤ – ايما نويل تود – مابعد الامبراطورية ، دراسة في تفكك النظام الامريكي – ط٢ – ترجمة محمد زكريا اسماعيل – دار الساقي – بيروت ٢٠٠٤ – ص : ٦٥ .

١٥ – المصدر السابق – ص : ٦٦ .

ان اقليم كوسوفا ، يعد اقليماً ذا وضع خاص داخل جمهورية صربيا ، التي تشكل مع جمهورية الجبل الاسود، الاتحاد اليوغسلافي الحالي. وقد اخذ هذا الاقليم الذي كان يعد دوماً بؤرة للصراع، يشهد تصاعداً للعنف منذ منتصف تسعينيات القرن الماضي بين مقاتلي "جيش تحرير كوسوفا" وقوات الأمن الصربية، بعد ان الغت السلطات الصربية، كل القرارات الخاصة بما كان يتمتع به سكان هذا الاقليم من حكم ذاتي وخصوصية ثقافية وتعليمية واجتماعية، مما ولد احتقاناً وتوتراً شديدين[١٦]، فضلاً عن ذلك، فان تصاعد التوتر والعنف جاء على خلفية طموحات اثنية متعارضة، لكل من الاغلبية الالبانية في الاقليم والاغلبية الصربية في الاتحاد، وقد تميز هذا العنف بطابعه القاسي واللاانساني[١٧]. ونرى ان مرد ذلك العنف لسعي الصرب للحفاظ على ماتبقى من ارض الاتحاد اليوغسلافي، لاسيما وانهم فشلوا في منع " كرواتيا وسلوفينيا والبوسنة – الهرسك " من الانفصال عن الاتحاد كلاً لاسبابه .

ان متغيرات العقد التسعيني من القرن الماضي، قد أسهمت بشكل كبير في بعث الراقد من النوايا والاهداف عند جميع مكونات الاتحاد اليوغسلافي، خاصة وأن مؤشرات حاسمة ، قد فعلت فعلها في بلورة التصعيد المتقابل، منذ ان بدأت تباشير السقوط السوفيتي تكاد تكون قريبة. فضلاً عن ذلك، فأن الامتداد الدولي لاطراف متعددين في الشأن اليوغسلافي، بات اكثر من ملموس، وتحديداً من قوى اقليمية ، لها حضور في الساحة، مثل "المانيا، النمسا، ايطاليا، تركيا، اليونان، روسيا،.... "مما ساهم في التصعيد المتقابل، الذي دفع الجميع في التمترس عند حافاتهم الدينية أو القومية، واوصلهم للعنف والقتل والقسوة.

ولأن هذا البحث ، معني بكوسوفا تحديداً، فأننا نجد ان اهم اللاعبين المؤثرين في الوضع الكوسوفي–خارج التركيبة اليوغسلافية–هو الدور التركي، ونرى ان تركيا تجد بأن خطوط اهتماماتها يصل حتى كوسوفا، بحكم ارتباطات الدين والثقافة والتاريخ المشترك . وهذا الاهتمام مرده، ان كل قضايا البلقان، مرتبطة مع بعضها، مادامت شعوب هذه المنطقة ذات اصول "عثمانية" مما يجعل من تأثيرات بعضها على بعض ذات عمق واضح وحضور مؤثر[١٨].

ونجد ان الاهتمام التركي بقضايا البلقان ، يذهب لمستويين من الفعل ، الاول : يستند على خلفية الارث التاريخي الذي يربط تركيا بشعوب هذه المنطقة وما يجمعهما من مشتركات

---

١٦ – نادية مصطفى – مصدر سابق – ص : ٥٦٦ .

١٧ – جاك بيولي – مصدر سابق – ص : ٦١ .

١٨ – رياض نجيب الريس – رياح الشرق – ط١ – دار رياض الريس للكتب والنشر – بيروت ٢٠٠٠ – ص : ٤٨٥ .

كالدين والتاريخ والثقافة والعادات و ... الخ ، والثاني : ان تركيا تحاول ان تقدم خدماتها للولايات المتحدة الامريكية في ازعاج الاتحاد الاوربي ، وعدم ثبات مؤسساته وامكاناته ، في حل اشكالاته الداخلية ، ومعنى ذلك ، ان يكون الجهد التركي اطلسياً ، وليس اوربياً ، وفي ذلك لمسة امريكية واضحة لاتحتاج لاستدلال ، خاصة وان الصدود الاوربي بعدم قبول تركيا في عضوية الاتحاد الاوربي ، باتت عارية لاتحتاج لستر أو مصدات ، لأن مابينهما مثلما يقول الاوربيون ، هوة حضارية !!!

كما ان تركيا ، لم تخف مسعاها ، لأقرار استقلال كوسوفا وبشكل يسمح لها بالتعامل كدولة كاملة السيادة والاستقلال ، حالها حال بقية اقاليم الاتحاد اليوغسلافي التي انفصلت عنه واعلنت كياناتها([19]) . وقد تكون تركيا في اعلان نواياها وبشكل علني ، تعبر عن روابط وأصر تاريخية قديمة مع سكان البلقان ، تمتد لأيام تمدد الامبراطورية العثمانية في ربوعهم ، كما انها تسعى ايضاً ، لأعلان تعاطفها مع بقايا مخلفات تلك الامبراطورية ممن تعرضوا للقتل والتهجير والاقصاء ، زائداً ان ذلك الاعلان ، يؤشر تجانساً بشكل ما ، مما يعني نفوذاً وقبولاً لتركيا وادوارها عند شعوب هذه الاقاليم .

ان نظرة سريعة الى خريطة العالم، تكشف وجود منطقة طويلة من التفاعل المتبادل ، ليس بين المسيحية والاسلام، بل حتى بين الشيوعية والاسلام، وتمتد هذه المنطقة من يوغسلافيا حتى آسيا الوسطى، وهي منطقة بارود متفجر عبر كل العصور ، وهذا ماكشفته الاحداث العنيفة التي حصلت بين كل مكونات الاتحاد اليوغسلافي" صرب، كروات، سلوفان، مسلمين، مقدونيين، البان،...". مما اكد عدم ضمان سلام دائم في هذه المنطقة، مهما تعددت النوايا والاهداف .

الادارة الدولية واعلان الاستقلال

شهدت السنوات الممتدة بين ١٩٨٩ – ١٩٩٩ رواج واتساع حالات القتل والعنف والتهجير القسري ، التي مارستها الدولة الصربية ضد سكان اقليم كوسوفا ، وبطريقة اقصائية وعنيفة ، مما ولد استياء عالمياً واسعاً ، على الصعيدين الرسمي والشعبي ، الامر الذي استوجب ان تتحرك الكثير من الدول – وخاصة الاوربية منها – جراء ضغوطات الرأي العام الاوربي، لإدانة وايقاف تلك الممارسات العنيفة والقاسية، التي تعرض لها سكان الاقليم، بعد ان اوغل الصرب بهذا السلوك، بعيداً عن حقوق الانسان والمعايير الانسانية. فضلاً عن ادراك جميع الاوربيين، بأن استمرار دورة العنف الديني والعنصري، التي يمارسها الصرب في الخاصرة الجنوبية للقارة، يشكل نقطة ضعف

19- WWW. AL jazeera. Net 2.2.2010 .

خطرة، قد تتوالد من خلالها بطريقة التسرب، اشكالا مشابهة في الكثير من الساحات الاوربية، خاصة في الاوساط الراديكالية، سواءاً كانوا من اهل البلد الاصليين، او ممن اكتسبوا الجنسية بالاقامة والتوطن .

كما ان استمرار حالات الاحتقان الديني والعنصري ، وبطريقة استفزازية ، مثلما فعلها الصرب ضد مسلمي الاتحاد اليوغسلافي السابق ، في الوقت الذي تتجه القارة الاوربية، لانجاز وحدتها السياسية والاقتصادية والثقافية، يشكل ادعاءً كاذباً، في حالة استمرار سياسة السكوت والاهمال والتغاضي، عما يحصل في الطرف الجنوبي من القارة، فضلاً عن ذلك، فأن مايحصل في تلك الرقعة الجغرافية الاوربية، يشكل نافذة تسرب للقوى المنافسة للاتحاد الاوربي، كروسيا او الولايات المتحدة الامريكية، كما انه يساهم في اتساع رقعة الاصولية الدينية، مما يعني خللا في حقائق القوة والنفوذ، وهذا ما لاترغب به كل القوى الاوربية.

ازاء ذلك، فقد اتجه الجميع، نحو استحصال جملة من القرارات الدولية من مجلس الامن الدولي، ضد مايحصل في كوسوفا. ورغم كثرة ماصدر عن المجلس من قرارات، الا انه عجز عن اتخاذ قرار يسمح له باستخدام القوة العسكرية، مثلما حصل في حالة العراق عام ١٩٩٠. وفي ذلك عيب واضح وانتقائية لاتحتاج لبرهان، وكأن الامر اشبه بحفظ ماء الوجه امام اللائمين. وقطعا ان ذلك تم بتوافق القوى الكبرى والنافذة في المسرح الاوربي، والمسرح البلقاني بالخصوص.

وازاء فشل مجلس الأمن في تحقيق ذلك، فأن حلف شمال الاطلسي "الناتو" فرض امراً واقعا، من خلال الاقدام على استخدام القوة العسكرية ضد يوغسلافيا في آيار/مايس ١٩٩٩، دون الانتظار الى صدور قرارات دولية جديدة من المجلس، الذي تحول دوره بعد ذلك، الى مجرد اضفاء الشرعية على قرارات وسلوك الناتو خلال مراحل تطور هذه القضية، وانتهاءً بفرض مشروعه للتسوية السلمية [٢٠]. ولابد من التأكيد ، ان خطوة التصعيد العسكري، جاءت بضغط والحاح امريكيين، بعد ان اتضح انقسام الدول الاوربية بين مؤيد لما يحصل في كوسوفا وراض عنه ، او ساكت متجاهلاً مايحدث . ولذلك ، فان القوات الامريكية تحديداً ، تحملت الجهد الاكبر في هذه العملية ، التي اجبرت يوغسلافيا ، للأذعان ، للقبول بالقرارات الدولية الخاصة بهذه القضية أمام عدم تكافؤ القوة العسكرية عند الطرفين .

[٢٠] – محمد فايز فرحات – الامم المتحدة وازمة كوسوفو – مجلة السياسة الدولية / القاهرة – العدد (١٣٧) – يوليو ١٩٩٩ – ص : ١٢٣ .

وقد اوضح قرار مجلس الأمن الدولي المرقم " ١٢٤٤ " الصادر في ١٠ حزيران / يونيو ١٩٩٩، ضرورة ، ان يوضع اقليم كوسوفا تحت ادارة بعثة الامم المتحدة " UNMIK " على ان يتولى حلف الناتو المهام الامنية فيه ، مع ضرورة تشكيل قوات أمن دولية ، ترابط في اقليم كوسوفا ، كمرحلة اولية لاقرار السلم الاهلي ، ولترتيب الاوضاع السياسية التي تؤول اليها الاوضاع ، من خلال لجنة دولية ، تضع تقريراً نهائياً يكون ملزما لجميع الاطراف (٢١) . ولذلك فأن التقرير النهائي الذي اصدره الرئيس الفنلندي السابق " أمارتي اهتساري " مبعوث الأمم المتحدة الخاص الى اقليم كوسوفا في الثاني من شباط / فبراير ٢٠٠٧ ، شكل اللبنة القانونية الاساسية لاوضاع الاقليم ، حيث حمل في جنباته ، خطوات جادة نحو استقلال الاقليم عن السيادة الصربيه، وفي الوقت نفسه اعطى ضمانات هائلة للأقلية الصربية داخل الاقليم الذين يمثلون نحو (٥%) من السكان . كما تضمن التقرير ، حق كوسوفا ، في ان تضع لنفسها دستوراً جديداً وان تكون لها رموزها الوطنية الخاصة من علم ونشيد قومي ، كما يعطيها الحق في الانضمام الى المنظمات الدولية . كما تضمن التقرير ، بعض الاشتراطات التي تشكل معايير اساسية في المفهوم الاوربي ، مثل الاهتمام بحقوق الانسان والنهج الديمقراطي السلمي والعلمانية ، ونبذ العنف ، ورعاية الرموز الثقافية والدينية للجميع مع ضرورة بناء الدولة تحت مفهوم المواطنة الواحدة (٢٢) .

وقد قوبل تقرير – اهتساري – بالقبول من اغلبية المجتمع الدولي ، وعارضته بعض الدول الاوربية ، بعضها من داخل الاتحاد الاوربي ، مثل " اسبانيا ، اليونان ، قبرص ، رومانيا " وبعضها من خارج الاتحاد ، وكانت المعارضة الاشد ، قد جاءت من روسيا ، التي تجد في استقلال كوسوفا ، تفكيكاً لآخر معاقل نفوذها في الاقليم البلقاني ، فضلاً عن ذلك ، فأن قبول ماحصل، قد يدفع بعض شعوب روسيا لتقليده في حالة تكامل انضاج الظروف الموضوعية والشكلية في زمن ما قادم ، خصوصاً اذا جاء في ظل اسناد قوة عالمية قادرة على التأثير.

لكن كوسوفا، نجحت في حشد التأييد الدولي لما جاء في توصيات – اهتساري – من خلال سعيها لاستمرار الدعم الدولي لها عسكرياً ومالياً ، وكان اكثر الداعمين لها ، الولايات المتحدة الامريكية وعموم دول الاتحاد الاوربي ، وهذا مامكنها في ان يعلن البرلمان الكوسوفي في ١٧ شباط

---

٢١ – WWW. Estatico. Elmundo – es/ documentos 2007 . 2.2 / Kosobo

٢٢ – محمد عبد الرحمن الجوهري – مستقبل كوسوفا بين الرغبات الصربية والمتناقضات الدولية ، مجلة السياسة الدولية – القاهرة – العدد(١٦٨) – ابريل ٢٠٠٧ .

/ فبراير ٢٠٠٨ ، استقلال كوسوفا ، كدولة مستقلة ذات سيادة كاملة على اقليمها الجغرافي ، في ظل ادانة وشجب صربيين برفض ماحصل والدعوة لابطال مفعوله ([٢٣]) .

ان اعلان استقلال كوسوفا ، والسعي لبناء الدولة العصرية الراعية للجميع ، لم يكن له ان يتحقق دون اسناد ودعم ورعاية القوى النافذة في المسرح السياسي الدولي ، وتحديدا الولايات المتحدة الامريكية ودول الاتحاد الاوربي، والسبب في ذلك، ان شكل القدر ات العسكرية والاقتصادية والسكانية بين صربيا وكوسوفا، تميل لصالح الاولى بدرجة هائلة، بل ليس هناك من وجه للمقارنة بين الطرفين. كما ان المساعدة التي قدمت لكوسوفا من هذه الاطراف، أشبه بأن تكون رسالة اعتذار عن التقاعس واللامبالاة التي طبعت تصرفات هذه الدول، يوم كان الصرب يواصلون منهج الابادة الجماعية ضد مسلمي البوسنة دون ان يردعهم أحد طيلة سنوات ١٩٩١ – ١٩٩٥.

لقد ادرك الجميع، بما فيهم قادة صربيا وكوسوفا ، ان قواعد اللعبة التي مكنت صربيا من ضم اقليم كوسوفا لها بعيد حرب البلقان ١٩١٢ – ١٩١٣، قد تبدلت، مما دعى شعب كوسوفا مستغلاً متغيرات اشكال القوة والنفوذ على المسرح السياسي الدولي، ان يعلن عن نفسه ويحقق استقلال بلده، حتى وان جاء ذلك الاستقلال تحت مظلة رفض بعض القوى النافذة كروسيا، وهذا ما دعى قادة كوسوفا، حتى بعد استقلال بلدهم ، الى التمسك بضرورة بقاء الادارة الدولية التابعة للأمم المتحدة في بلدهم، خصوصاً وان الجناح العسكري لهذه الادارة ، تابع لحلف الناتو، من خلال قواته البالغة سبعة عشر الف عسكري، والتي يطلق عليها اختصاراً اسم" K4" فضلاً عن ارسال الاتحاد الاوربي بعثة خاصة له، تساعد الادارة الكوسوفية في المواضيع الداخلية الخاصة بنشاط الدولة. ووجود هاتين الادارتين، يوفر لكوسوفا، ضمانة أمن اكيدة، بوجه الخطط والنوايا الصربية، التي لم تنفك بوصفهما بأنهما " ادارة احتلال لأحد أقاليم صربيا"([٢٤])، دون ان ننسى جهدهما الفعال في المساعدة لبناء الدولة الكوسوفية، بما يمكنها من ان تكون عنصراً فاعلاً وايجابياً في المحيط الذي تعيش فيه.

الخاتمة:

ان استدعاء ذكريات الماضي العنيفة، تشكل واجهة حقيقية لما يجري في البلقان، لذلك فالرهان، على ان جميع القوميات والاديان، تستطيع ان تتوافق وتتواءم في ظل سلطة واحدة، أمر صعب، لا اظن ان احداً يستطيع الجزم به، خصوصاً وأن بعض مشاهد هذا العنف، لم تبرد جراحها

[٢٣] – صحيفة الشرق الاوسط/لندن– البان كوسوفو يحققون حلمهم اليوم – العدد (١٠٦٧٣) في ٢٠٠٨/٢/١٧ .

[٢٤] – صحيفة الشرق الاوسط / لندن –كوسوفو هدية صربيا الضائعة – العدد (١٠٦٧٨) في ٢٠٠٨/٢/٢٢ .

لـلآن، وهذا مايشـكل ثقـلاً معنوياً ووجـدانياً علـى الجميـع . لـذلك فـأن اسـتقلال كوسـوفا، بقدر مـاهو تحقيق لأمـاني أحد الشـعوب، فهو بؤرة عنـف، جرى تطويقهـا من خـلال نـزع اثارها العنيفـة والقاسـية بعيدا عن التأثير في المسرح الاوربي، وفي ذلك، فأن الفوائد اكثر من الخسائر.